المكتبة العربية
في عصر الحروب الصليبية

للاستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٤ —

وكان النحو مادة أساسية من مواد الثقافة فى هذا العصر ويكاد يشترك كل المثقفين فى أن يأخذوا منها بنصيب ، وندر من لم يشارك فيها ، وكانوا يعدونها أداة أساسية لدراسة العلوم الشرعية

وأهم ما كان يدرس بالبلاد يومئذ كتاب المفصل للزمخشرى ، وقد نال من عناية العلماء فى ذلك العصر عالم بذله كتاب آخر ؛ فظفر بشروح كثيرة منها شرح ابن الحاجب وشرح ابن يعيش وساهمت البلاد مساهمة فعالة فى الإنتاج ، وغزت كتبها العالم العربى بدورها حتى صارت تلك الكتب أهم مايدرس فى تلك المادة . وحسبى أن أشير هنا إلى كتب ابن مالك وعلى رأسها ألفيته ، وكتب ابن الحاجب ومن أهمها كافيته ، كما وضع ابن معطى ألفية . وقد عرفت من بين ما أنتجته هذه البلاد أكثر من أربعين كتابا منها المطول ومنها الموجز ، وعرفت من الرجال الذين ساهموا مساهمة كبيرة فى دراسة هذه المادة زهاء مئتى عالم كان أكثر تخصصهم فيها

أما فى اللغة فقد عرفت البلاد فى ذلك العصر أمهات كتبها ؛ فدرسها رجالها واختصروها حينا ووضعوا عليها الحواشى التى تتعقب ما وقع فيها من الوهم ، كما اشتركت البلاد فى الإنتاج اللغوى ، وكان أكبر ما تمخض عنه جهودها ذلك الكتاب العظيم لسان العرب لابن مكرم المصرى وقد تم تأليفه سنة ٦٨٩ وجمع فيه مؤلفه بين التهذيب والمحكم والصحاح وحواشيه والجمهرة والنهاية ورتبه ترتيب الصحاح

ووضع العلماء فى ذلك الحين كتبا لا تصل إلى مستوى هذا الكتاب ، وتناولوا بعض نواحى فقه اللغة فكتبوا فى الاشتقاق والاشتراك والتصحيف وغيرها ، واشتهر من علماء اللغة يومئذ طائفة كبيرة ، منهم تاج الدين الكندى وعبد الله بن برى وابن مكرم المصرى

وفى علوم البلاغة درست مصر والشام ماعرفته اللغة العربية من الكتب التى ألفت فيها من قبل سواء فى ذلك ما وضع فى تلك العلوم بخاصة ، أو ما تناولها وإن لم يخصص لها ، وتستطيع أن ترجع إلى كتاب بدائع القرآن لابن أبى الإصبع لترى ما عرف يومئذ من كتب البلاغة ، وتدرك أن مسائلها كانت لا تزال متفرقة بين كتب التفسير وكتب الأدب وكتب النقد والبلاغة ، وقد قام علماء البلاد بجمع هذا التناثر المتفرق هنا وهناك ، ثم لم يقفوا عند هذا الجمع ، بل زادوا ما وصلوا إليه باجتهادهم الشخصى وأذواقهم الخاصة ، ووضعوا كتبا كثيرة لم أر منها إلا مالا يكاد يزيد على أصابع اليدين

وكان دارسو البلاغة فى ذلك الحين يرمون إلى هدفين : أولها دراسة بلاغة القرآن ، وثانيها القدرة على تذوق القول الجميل والعون على إنتاجه ، وما بقى لدينا من كتب هذا العصر يدل فى وضوح على هذين الهدفين ، وقد يتغلب أحدهما على الآخر فى بعض الكتب ، فترى كتاب الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز ، وكتاب بدائع القرآن ، وكتاب التبيان فى علم البيان لابن الزملكانى ترمى إلى بيان ما أودعه القرآن من ألوان البلاغة ، بينما تجد الغالب على كتاب المثل السائر وكتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة وكتاب تحرير التحبير ، وكتاب البديع

أمة من الأمم شاعرة حتى فهمت أنها أمة بدائية وأن حياتها العقلية ما زالت هامدة جامدة . فهنيئا لمصر أن يضمحل فيها الشعر ويقل فيها الشعراء ، وأن يزدهر فيها العلم وتمتلىء بالكتاب والعلماء

وتقبل فى النهاية تحية خالصة ملؤها المودة الصادقة .

كمال بسيونى

لأسامة ضرب المثل البلاغية للتذوق والاقتداء

وأشهر مؤلفي البلاغة في ذلك العصر ابن الأثير صاحب كتاب المثل السائر وهو أسير كتاب بقي لنا ، وعبد العظيم بن أبي الإصبع وبدر الدين بن مالك الذي اختصر المفتاح للسكاكي في كتاب سماه المصباح

— ٥ —

وظفرت المكتبة العربية في ذلك العصر بإنتاج ضخم في التاريخ ، وألوان متنوعة فيه ، وشخصيات ذوات أقدار ممتازة من الناحية العلمية والاجتماعية ، ومن الممكن أن نتبين في هذا العصر أكثر من عشرين اتجاها في كتابة التاريخ

فبعض مؤرخي العصر قد أعجب بأسرته من ناحية مجدها السياسي حينا أو العلمي حينا آخر ؛ ومنهم من اكتفى بكتابة مذكرات شخصية سجل فيها مارآه ، كما فعل أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار . واتهج بعض علماء هذا العصر نهجاً صالحاً قويما فألفوا معاجم ترجموا فيها لأساتذتهم الذين كانوا يبلغون في بعض الأحيان عدة آلاف ؛ وإن هذه المعاجم لخليقة أن تعطينا فكرة حقيقية عن الحركة الفكرية والجهد العلمي في تلك الأيام ، وترسم لنا صورا للتعليم ومناهجه في تلك العصور

ومن المؤرخين من أعجب بشخصية ، فمضى يجمع أخبارها ويؤرخ لها ، وكان صلاح أوفر هذه الشخصيات حظا ، كما ظفر نور الدين والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون بعناية مؤرخي ذلك العصر ، وبقي لنا من ذلك كتاب الروضتين

ولم يقف كثير عند حد الترجمة المفردة ، بل مضى يؤرخ لطائفة معينة من الناس ، كما جمع علي بن ظافر الأزدي أخبار الشجعان والظفر بن قدامة مناقب الصالحين وأخبارهم ، ومن أهم كتب التراجم الناقصة الباقية لنا من ذلك العصر كتاب وفيات الأعيان الذي لايكاد يستغني عنه باحث في عصرنا هذا ، وكتاب معجم الأدباء لياقوت

ومضى بعضهم يؤرخ المكتبة العربية إلى ذلك العصر ، ولو أن هذه الكتب كلها بقيت لاستطعنا أن نرسم إلى مدى بعيد صورة قوية لسير الحركة العلمية في هذا العصر ، وما سبقه من عصور ، وقد ساهم الوزير القفطي بنصيب كبير في هذه الحركة ، فوضع كتابا في أخبار المصنفين وما صنفوه ، وآخر في أخبار النحاة ، وبقي لنا إلى اليوم من الكتب التي تؤرخ لبعض نواحي المكتبة العربية كتاب ابن أبي أصيبعة الذي دعاه عيون الأنباء في طبقات الأطباء

ومن أهم ماعني به المؤرخون في ذلك العصر تاريخ المدن ، يذكرون فيه من دخل المدينة ، أو سكنها من عظماء الرجال . وربما كان أضخم كتاب وضع في تاريخ مدينة في ذلك العصر هو تاريخ دمشق لابن عساكر ولا يزال موجودا في أكثر من أربعين مجلدا ، كما أرخوا لمصر وكتبوا في خططها ، وأرخوا لغير القاهرة كأسوان والفيوم والإسكندرية

وتنوعت الاتجاهات في كتابة التاريخ السياسي يومئذ ، فمن المؤرخين من عني بتاريخ الوزراء كابن الصيرفي في كتابه الإشارة إلى من نال الوزارة ، وعمارة اليمني في كتاب النكت العصرية ، ولا يزال الكتابان باقيين . ومنهم من أرخ لمصر على ترتيب السنين ومنهم من أرخ للدولة الفاطمية أو الأيوبية ، ومنهم من عنى بباقي أجزاء العالم العربي فوضع القفطي تاريخا للمغرب وتاريخا لليمن

وكانت العناية بالتاريخ العام أكبر من العناية بالتاريخ الجزئي ، وقد بقي لنا ستة كتب تمثل هذا الاتجاه منها كتاب الدول المنقطعة للوزير جمال الدين الأزدي ، وقد تضمن أخبار الدول الإسلامية وحوادثها وغزواتها وهو مرتب على السنين ، ومنها كتاب تاريخ الزمان في تاريخ الأعيان ألفه سبط ابن الجوزي ، وكتاب أبي شاكر بطرس المعروف بابن الراهب وقد جمع فيه التاريخ من آدم إلى عصره في إيجاز وللشيخ ابن العميد كتابان في التاريخ أحدهما يدعى تاريخ ابن العميد وهو يبحث في تاريخ ما قبل الإسلام ، والتاريخ يدعى تاريخ المسلمين وانتهى به إلى سنة ٦٥ وكتب ابن واصل كتابه التاريخ الصالحي في التاريخ العام ونالت الجغرافية في هذا العصر حظا كبيرا من عناية رجاله

وتنوعت اتجاهاتها ، ويحسبنا أن ينتج هذا العصر كتاب معجم البلدان لياقوت الذى يعد من أهم المصادر إلى وقتنا هذا

— ٦ —

وكانت الفلسفة موضع عناية الفاطميين فقد كان الدعاة يلقنون تلاميذهم حبها ، ويحضونهم على النظر فى كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ومن على شاكلتهم ، وينهونهم عن قبول الأخبار والاحتجاج بالسمعيات ، ويزينون لهم الاقتداء بالأدلة العقلية والتعويل عليها ، ويحيلونهم إلى ما تقرر فى كتب الفلاسفة من العلم الطبيعى والعلم الإلهى ، فكانت دراسة الفلسفة للدعوة الشيعية وإحدى دعائمها ، ورغم ما كان للفلسفة من هذه المكانة القوية لم أعثر على فيلسوف نبغ فى هـــذه الفترة التى شهدت الحروب الصليبية ، وربما رجع ذلك إلى ما لاقته آثار الفاطميين الفكرية من تشريد على يد صلاح الدين الذى كان سنيا يكره الفلسفة ورجالها ويراها مضللة . للعقول وتأثر الكامل خطوات عمه صلاح الدين ، ويظهر أن اضطهاد الفلسفة قد خفت وطأته بعد موت الكامل وأخيه الأشرف ، وتولى بعض دارسيها مناصب كبيرة فى الدولة كالقضاء ، أومناصب دينية كبرى كمحمد ابن أبى بكر المعروف بالأبيكى وكان إماما فى المنطق وعلوم الأوائل فإنه استقر بمشيخة الشيوخ بخانقاه سعيد السعداء ، وظهر فى هذه الفترة التى استعاد فيها دارسو الفلسفة والمنطق حريتهم علمان ممتازان هما عز الدين الإربلى المتوفى سنة ٦٦٠ وأستاذه أفضل الدين الخونجى المتوفى سنة ٦٤٦ ، وقدم الخونجى كتبا كثيرة فى المنطق للمكتبة العربية لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم ككتاب الموجز ، وظفرت كتبه فى المنطق بعناية كثير من العلماء فشرحها بعضهم وعلق عليها آخرون

— ٧ —

وتنوع الإنتاج فى المكتبة الأدبية يومئذ ؛ فمن مجموعات تحوى رائع القول كما فى كتاب الآداب النافعة والألفاظ المختارة الجامعة لابن شمس الخلافة الأفضلى وكتاب تذكرة ابن المديم التى ضمنها كثيرا من الآداب ونوادر الأشعار . وأهم ما بقى لنا من هذا النوع كتاب خريدة القصر للعماد الأصبهانى وقد تضمنت مختارات من شعر شعراء العراق ومصر والشام والحجاز واليمن وصقلية والمغرب والأندلس ، وكتاب المطرب فى أشعار أهل المغرب لابن دحية

ومن دراسات للآثار الأدبية كحواشى الكندى على خطب ابن نباتة وديوان المتنبى وشرح شمس الحلى على مقامات الحريرى ، وبدار الكتب شرح الضرير النحوى على تلك المقامات

ومن معاجم تحوى أخبار الشعراء والأدباء كمعجم الشعراء لياقوت ، ومعجم شعراء الشيعة ليحيى بن حميدة

ومن مختصرات الكبريات الآثار الأدبية كما فعل محمد بن عبد الكريم المهندس الذى اختصر كتاب الأغانى الكبير

وفى هذا العصر نهض الشعر نهضة كبرى ، فقدم للمكتبة العربية كثيرا من الدواوين نذكر من بينها ديوان القاضى الفاضل ، وابن سناء الملك وابن مطروح والبهاء زهير

أحمد أحمد بدوى

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

للاستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر، بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز، وتحليل مفصل ، واختيار موفق، ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع اثنتى عشرة مرة فى ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد